المقدمة

إني أُدرك الفرصة والمسؤولية غير العاديتين اللتين أخذتهما على عاتقي في تأليف هذا الكتاب. وعندما كتبت للرئيس مانديلا في سنة 1995 لأقترح عليه أَن يسمح لي بكتابة سيرته الذاتية، دعاني لتناول طعام الإفطار في بيته في جوهانسبرغ، وأَخبرني عن رغبته في أَن أَقومَ بكتابتها نظراً لصداقتنا الطويلة، واشترط مازحاً أَن لا أَذكر أننا تعارفنا أولاً في حانة غير مرخصة. وذكَّرني أَنه قرأ كتابي «التحليل البنيوي لبريطانيا» Anatomy of Britain يوم كان ينتظر إجراء محاكمته في سنة 1962. وقد وعدني بأن يبحث معي في أمور دقيقة حرجة، محاولاً أن يضمن دقة الوقائع والأحداث، وأن يُطلعني على رسائل ووثائق تتعلق بهذا الموضوع، على أن يترك لي حرية الحكم والنقد. وأضاف أَن التعلُّم من الأَخطاء هامّ جداً، وألَحَّ قائِلاً: «أنا لستُ ملاكاً».

لقد كان من حسن حظي أني عرفت مانديلا قبلاً في جوهانسبرغ سنة 1951، ثم شاهدته في مواقف مصيرية عدة؛ خلال السنوات العشر التالية قبل سجنه. وقد التقيت به أولاً بعد حضوري إلى جنوب إفريقية لتحرير مجلة السود «درم» Drum، التي فتحت جميع الأبواب المؤدية إلى العالم الصاخب المثير للكتّاب والموسيقيين والسياسيين السود في جوهانسبرغ، حيث كان مانديلا يتحرك، إذ أعطاني موقعاً متقدماً لأشهد منه المعارضة السوداء المتصاعدة ضد الحكومة العنصرية التي وَصَلَت إلى السلطة سنة 1948.

لقد حضرت مؤتمر حزب المؤتمر الوطني الإفريقي ANC الذي أيَّد حملة التحدي في سنة 1952؛ وكنت أُراقب مانديلا وهو يقوم بتنظيم المتطوعين

الأوائل وتعبئة المقاومة في سنة 1954 لمقاومة تدمير حي «صوفيا تاون»، ذلك الحي الفقير المتعدد الأعراق، حيث قضيت عدداً من أُمسياتي السعيدة. ولطالما رأيتهُ في سنة 1957 في «محاكمة الخيانة» التي أَلَّفْتُ عنها كتاباً في وقتٍ لاحق؛ وفي سنة 1960، قُمتُ بتغطية أحداث «شارپڤيل» Sharpeville كمراسل لصحيفة «الأوبزيرڤر»، وأَجريتُ مقابلةً مع مانديلا في «سويتو» Soweto عقب المذبحة مباشرةً. وكانت آخر مرة رأيته فيها، وكانت مؤلمة مؤثرة، سنة 1964، عندما كنت أُتابع محاكمة «ريڤونيا» Rivonia في پريتوريا Pretoria، مما أَعطاني الفرصة لرؤية الخطاب الأَخير الذي كان يُعدُّهُ في ذلك الوقت.

ولم أتمكن كصحافي من رؤية مانديلا خلال سنوات سجنه التي بلغت سبعاً وعشرين سنة، لكني زرت جنوب إفريقية السوداء ثانية، وبقيت على اتصال بالمنفيين في لندن وأَماكنَ أُخرىٰ. وفي أَواسط الثمانينات، عندما كان الصراع يتفاقم، كنت رأيت أُوليڤر تامبو رئيس حزب «المؤتمر الوطني الإفريقي A.N.C.» عدة مرات في لندن، وهيّأت له لقاءات مع رجال الأعمال، وكنت كثيراً ما أَتحدث إلى ويني مانديلا هاتفياً. لقد عدت إِلى جوهانسبرغ بسبب أَزمتَيْ 1985 و1986. وكنت أُعِدُّ كتاباً يتناول سياسة السود وأعمالهم بعنوان «السود والذهب»، وذلك قبل أن تمنعني حكومة جنوب إفريقية من العودة في سنة 1986. ثم رُفِعَ الحظر عني بشكل مؤقت في الوقت المناسب تماماً لعودتي قبل إطلاق سراح مانديلا من السجن في شباط (فبراير) من سنة 1990. وفي الفترة التالية كنت أَقوم بزيارته مرتين في كل أُسبوع في بيته في سويتو، وقد قابلته مراراً خلال السنوات الأَربع التالية في كُلٍّ من لندن ـ حيث طلب مني أَن أَقوم بتقديمه في لقاءات جمع التبرعات ـ وفي جوهانسبرغ، التي ترددت إِليها مراراً، حيث كنت أُتابع انتخابات نيسان (أبريل) من سنة 1994.

لقد قمت بعدة رحلات في أَنحاء جنوب إفريقية مع زوجتي سالي مُذ بدأت كتابي هذا، في محاولة مني لجمع أطراف أُحجية حياة مانديلا المتنوعة،

حيث كان يتعمق في نفسي مشهد التغيير السريع الذي نعيشه. ولقد رأَيت الرئيس مانديلا في مواقع متباينة: في مكاتبه وفي مسكنه في كل من بريتوريا وكيب تاون، وفي بيته الخاص في (هوتن) في جزيرة (روبن)، وفي ولائم ومؤتمرات، وفي البرلمان في (كيب تاون)، وفي هيئة الأُمم المتحدة بنيويورك، وبمناسبات رسمية في (لندن). وسافرت إلى (غريت بلايس) حيث نشأ مانديلا في (ترانسكي)، وذهبت إلى بيته الجديد في (كونو) وتحدثت إلى عشرات من أصدقائه وزملائه القدامى، كما تحدثت إلى مناوئيه في الماضي، سواء كان منهم السجَّان أو الموظف أو الزعيم السياسي ومنهم الرئيس السابق ف. و. ديكليرك في كيب تاون، ووزير الخارجية السابق بِك بوتا في (ترانسڤال).

لقد أَعطت سيرة مانديلا الذاتية المؤثرة التي نُشِرَت في سنة 1994 بعنوان «المسيرة الطويلة إلى الحرية» سجلات ذاتية لتطوره السياسي لا تقدر بثمن. وقد تلقيتُ من معاونه (ريتشارد ستنغل) إرشادات سخية، فقد أفدت من مقابلاته المسجلة مع مانديلا. كما سُمِحَ لي بالاطلاع على المذكرات غير المنشورة التي كتبها مانديلا في السِّجن. ورأَيتُ المخطوطة الأَصلية التي كتبها بخط يده. أما السيرة الذاتية لمانديلا التي نُشِرَتْ عندما أصبح رئيساً، ومع نهجه في التحفظ السياسي والتواضع، فإنها تترك مجالاً واسعاً لصورة متعددة الوجوه تصفه من خلال رؤية الآخرين له وتُبَيِّنُ كيف تعامل مع الأَصدقاء ومع الأَعداء، ووضعت حياته في إطار عالمي.

كنت، في تأليفي هذا الكتاب، أُحاول أن أَعرض الحقائق القاسية لحياة مانديلا، الطويلة والمحفوفة بالمخاطر، كما بدت له ولأَصدقائه في زمنها، مجردةً من بريق الأُسطورة والرومانسية، متقصياً تعاظُمَ صورة مانديلا المتألقة عندما كان سجيناً، والتي اكتسبت تأثيرها وقوَّتها الخاصة في شتى أَنحاء المعمورة، كما حاولتُ أَن أَعرِض كيف استطاع السجين أَن يَربط الرَّمز بالواقع.

لقد أوليتُ سنين سجن مانديلا الطويلة اهتماماً خاصاً، وساعدني على

ذلك مقابلات شاملة أُجريت معه، والرسائل والوثائق التي لم تُنشر، فقصّة سجن مانديلا لها قيمة فريدة عند كاتب السيَرة، إذ تُوَفِّرُ، بما فيها من زخم إنساني واختبارات للشخصية، مسرحية صادقة حميمة أكثر مما هي مهرجاناً تاريخياً واسع المدى؛ حيث أصبحت علاقات مانديلا بأصدقائه وسجانيه مسرحية درامية عالمية ذات مغزى وأَهمية تجاوزت السياسة الإفريقية. إن سنين سجن مانديلا تُصَوَّر غالباً كفجوة طويلة في مجرى حياته السياسية، غير أني أراها مفتاحاً لتطور شخصيته بتحوله من ناشط عنيد إلى رجل دولة عالي المستوى، كثير التأمل، ذاتي الانضباط.

وأُحاول أَيضاً أن أَضع حياة مانديلا في إطار عالمي أوسع، مستقياً معلوماتي من رسائله ومن مصادِرَ دبلوماسية واستخباراتية لم تُنشَر بعد. وتقصَّيت أَثر سوء الفَهم وسوء التصرف اللذين تعامل بهما العالم الغربي مع الأَزمة المتفاقمة في جنوب إفريقية في الستينات والسبعينات، وكيف خُدِعَ وضُلِّل في كل ما له علاقة بمانديلا ورفاقه، من خلال الهواجس التي استبدت به، ومن خلال حملات الحرب الباردة. وكيف غاب تقريباً عن شاشات رادار العالم، وكيف ساهمت حكومات وأَفراد بعودته منتصراً. وحاولت أن أقتفي المفاهيم المتغيّرة والمتناقضة عن جنوب إفريقية في العالم الخارجي، والتي تحمل في طياتها أولاً تنبؤات رهيبة تنذر بحمام دم وشيك، كما تنطوي على نموذج للمفاوضات والتسويات التي خاضها مانديلا في قلب الأحداث.

إنني مدين للرئيس مانديلا ذاته في إنجاز هذا العمل الطموح، فقد كان كريماً جواداً بوقته الثمين. ولم يقتصر ذلك على إفساحه المجال لي لإجراء مقابلات شخصية معه فحسب، بل قام أيضاً بقراءة المسودات المعدّة لطباعة هذا العمل. فقد قام بتصويب عدد من الوقائع والتفاصيل، مع احترامه للاتفاق بيننا على عدم التدخل بآرائي واجتهاداتي الخاصة. فقد أَضافت تعليقاته الحيوية على النص أكثر مما أنقصت من المسودة الأساسية. لقد كانت تجربة نادرة أن

أحظى بمثل هذا التفاعل مع شخصيّة تاريخية فَذَّة، والذي آمل أن يعوضني عن أي عقبات تقف في وجه كاتب سيرة معاصر.

وإني مدين أَيضاً لأصدقاء مانديلا المقرَّبين، وكان بعضهم من أصدقائي منذ أوائل الخمسينات. فكان «أحمد كاثرادا» ـ زميل مانديلا في السجن مدة خمس وعشرين سنة ـ موجهي الأَول ومصدر معلوماتي الرئيس خلال هذا العمل، ففتح أَمامي الأَبواب التي ما كانت لتفتح لولاه، وأعطاني ـ بكل تواضع ونكران للذات ـ كثيراً من وقته، كما أَذِنَ لي برؤية رسائله القيّمة التي ستنشر قريباً. ومنحني «والتر سيزولو» Walter Sisulu الذي طالما أَجريتُ معه مقابلات في الخمسينات والستينات، وقتاً طويلاً بصبر وأَناة وتأَمل، مضيفاً رؤيته الخاصة لخلفيات السياسة والفكر على مدى خمسين سنة. أَما «ماك ماهاراج» MacMaharaj فقد اطَّلعَ على مسودات هذا الكتاب، وأَضاف معرفته الفريدة بالأَحداث والوقائع داخل السجن وخارجه. وأَعطاني البروفيسور «جاكس جيرويل» JakesGerwel سكرتير مجلس الوزراء أَفكاراً ومفاهيم كثيرة عن مانديلا وحكومته. وساهمت «نادين غورديمر» Nadine Gordimer، وهي أقدم وأعز صديقة لي بين البيض في جنوب إفريقية، والتي كنت أَمكُثُ معها عادةً في جوهانسبرغ، بملاحظاتها المتميزة كصديقة مقرَّبة من الرئيس وكشاهدة على كثير من الأَحداث التاريخية. وشاركني «فرانك فيراري» Frank Ferrari الأمريكي صاحب السلطة الأكثر شهرة في جنوب إفريقية كثيراً من الخبرات وأَضاف آراءه. وهناك سياسي آخر متمرس في فترة الخمسينيات هو الدكتور «ناثاتو موتلانا» Nathato Motlana الذي كان دائم الاستعداد للمساعدة ولأَن يُدلي بدلوِهِ في تقديم المعلومات، والطريف من ذكرياته وآرائه. وأَطلعتني «أَديلايد تامبو» Adelaide Tambo، وهي أَرملة «أوليفر تامبو» Oliver Tambo، الذي كان صديقاً لي في لندن وجوهانسبرغ، على ذكريات ورسائل أَلقت ضوءاً جديداً على الصداقة بين عائلة مانديلا وعائلة «تامبو». أما «جورج بيزوس»

GeorgeBizos، كبير محامي مانديلا الذي التقيت به أول مرة في محاكمة «ريفونيا» والذي كنت أراه في كل زيارة كنت أقوم بها إلى جنوب إفريقية، فقد كان لا يضن عليَّ بحكمته وذكرياته المفعمة بالحيوية بحكم موقعه في الخطوط الأولى.

وشارك الزملاء القدامى الذين كانوا يعملون في مجلة «دْرَمْ» Drum والذين شاهدوا بأُم العين التغييرات غير العادية التي حدثت في جنوب إفريقية خلال خمسين عاماً، فقدموا لي ما لديهم من ذكريات وآراء، ومنهم «جيم بايلي» Jim Bailey صاحب مجلة «درم» السابق، «وإسكيا مفلل» Es'kia Mphahlele المحرر الأدبي السابق، و«يورغن شادبرغ» Jürgen Schadeberg المصوِّر الرائد ومحرر التصوير، و«بيتر ماغوبن» Peter Magubane خَلَفَه المتميّز، و«آرثر مايمان» Arthur Maimane الكاتب المتعدد المواهب، الذي اجتذَبْتُهُ إلى عالم الصحافة سنة 1951، و«إزمي ماتشِكيزا» Esme Matshikiza أرملة المؤلف الموسيقي والصحافي الراحل اللامع «تود ماتشِكيزا» Todd Matshikiza، وابنهما «جون ماتشِكيزا» John Matshikiza، و«سلفستر ستاين» Sylvester Stein، المحرر الذي خَلَفَني مباشرة في تحرير المجلة في سنة 1995.

أما الكاتبان السابقان لسيرة مانديلا ـ وكلاهما من أصدقاء العمر للرئيس مانديلا ـ فقد تميزا بالإيثار الرائع ولم يدخرا وسعاً في إمدادي بكل نصيحة أو وثيقة لديهما: وهما «ماري بنسون» Mary Benson الرائدة المتمرسة للحملة ضد سياسة التمييز العنصري في لندن، وكانت لها رؤية فريدة في «حزب المؤتمر الوطني الإفريقي» وعائلة مانديلا على مدى أربعين سنة؛ «فاطمة مير» ـ التي شاهدت مانديلا خلال فترات وتجارب حرجة منذ الخمسينيات، وقد أمدتني بالكثير من النصائح الغالية والوثائق النفيسة. وأَتاحت لي سماحةُ صديقي القديم «جومينيل» Joe Menell الاطلاعَ على نسخ طبق الأصل للمقابلات الشمولية التي أَعدها لِفيلمِهِ الوثائقي عن مانديلا. وأنا مُمتن لـ «مايكل هولرويد»

Michael Holroyd و«آرثر شليزنغر» Arthur Schlesinger اللذين أَسدَيا لي النصح السخي حول المشاكل الصعبة التي يواجهها كاتب السير عادة.

ومن بين أصدقائي الكثيرين الجدد الذين ساعدوني أودُ أن أَخصَّ بامتناني «غيل غيرهارت» Gail Gerhart التي تتمتع بمعرفة واسعة لا يضاهيها فيها أَحد، وهي محررة المجلدات الخمسة لكتاب عن تاريخ سياسة السود في جنوب إفريقية عنوانه: «من الاعتراض إلى التحدي» From Protest to Challange، وهو كتاب لا يَستَغني عنه دارسٌ لهذا الموضوع. فهي لم تبخل بالنصائح والمصادر والمراجع واللقاءات والوثائق غير المنشورة. كما أَتوجه بالشكر والامتنان «لإقبال مير» محامي الرئيس مانديلا في لندن؛ لما قام به من الإعداد لإخراج الكتاب ولاقتراحاته البنّاءة. وأُقدِّر مساعدة «إسماعيل أيوب» محامي الدفاع عن الرئيس في جوهانسبرغ. ولقد تعلَّمتُ الكثير من «غاي بيرغر» Guy Berger وزملائه في جامعة «رودس» Rhodes التي استمتعت فيها بإقامة مثمرة للغاية.

كما تلقيت مساعدات رائعة من أُمناء المكتبات والأَرشيف في جنوب إفريقية، فقد وضعوا تحت تصرفي وثائق لم تعرض من قبل. أذكر من هذه المكتبات مكتبة «برنثرست» Brenthurst بمجموعتها الفريدة في جوهانسبرغ، ومكتبة «كُلِن» Cullen في جامعة «ويتواترزراند» Witwatersrand، وأَرشيف حزب المؤتمر الوطني الإفريقي في «شل هاوس» Shell House وجوهانسبرغ وفي جامعة «فورت هير» Fort Hare أيضاً، ومكتبة «كوري» Cory القيمة في جامعة «رودس» في «غراهامزتاون» Grahamstown، ومكتبة «هاري أُوبنهايمر» Harry Oppenheimer في جامعة «كيب تاون»، وأَرشيف «مايباي» Mayibuye في جامعة «وسترن كيب» Western Cape، والمقتطفات الباهرة من صحيفتي «جوهانسبرغ ستار» و«كيب تايمز» Cape Times. وقد سُمِحَ لي بالاطلاع على أرشيف الحكومة الذي يجب أن يكون في مَنْأًى من التداول. لقد أفادَ مساعدي

في البحث في لندن من مكتبات «مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية» و«معهد دراسات الكومنولت»، وفي واشنطن أَفدت كثيراً من أرشيف «الأمن القومي».

ولقد أَضحت مهمّتي كلّها أكثر يُسراً بفضل مساعدي في البحث الدكتور «جيمس ساندرز» James Sanders، الذي يتحلّى بسَعَة الحيلة والحيوية، فقد واظب على تعقب الوثائق واقتفاء أثرها، والتحقق من المصادر، وإيجاد سُبُل جديدة للتحقيق كشفت معلومات جديدة لافتة للنظر في أَرشيف لندن وواشنطن وبريتوريا، فتعَمَّقَتْ مساهمته إلى ما هو أَبعد من البحث. فأَنا مدين بالكثير لفكره الخلاّق ولعقليته في البحث، بما وَفَّرَتاه لي من الأَفكار والأَسئلة والحلول للمشاكل الصعبة، مما جعلني أكثر استمتاعاً بمشروعي وأقلّ عزلة.

وتمتَّعت خلال دوامة إعداد الكتاب للنشر بالتعاون والدعم الرائعين من فريق التحرير لدى «هارپر كولينز». فقد جاءت فكرة الكتاب ابتداءً من «ستيوارت پروفيت» Stuart Profitt، الذي لولاه لما أُعِدَّ الكتاب. لكن، وبعد مغادرته «هارپر كولينز» في سنة 1998، وجدت الدعم التام من رئيس مجلس الإدارة «إِيدي بِل» Eddie Bell، والمحررين اللذين طالت معاناتهما معي «ريتشارد جونسون» Richard Johnson و«روبرت لاسي» Robert Lacey، ومديرة الدعاية «هيلين إِليس» Helen Ellis، حيث التزموا التزاماً رائعاً بهذا المشروع. كما أفدت أيضاً من تشجيع «تشارلز إِليوت» Charles Elliott، المحرر في دار «ألفرد أ. كنوپف» Alfred A. Knopf وخبرته الطويلة، وتشارلز هو المحرر الأَمريكي لكتاباتي. وأَتوجه بالشكر لـ «جوناثان بال» Jonathan Ball ناشر كتاباتي في جنوب إفريقية، لمعونته وحماسه. أَما مُنسِّق فهارس كتاباتي «دوغلاس ماثيوس» Douglas Mathews فقد أَضافَ سَعَة علمه إلى عملي، كما فعل بكتبي السابقة. كما أني وجدت الدعم المخلص من وكيل أَعمالي «مايكل سيسونز» Michael Sissons وهكذا كان شأنه دائماً، فقد واكب مسيرتي خلال أَكثر من عشرين كتاب من مؤلفاتي. وما كان لي أن أُنجزَ هذا العمل دون

مُساعِدَتي «كارلا شِيمِلْد» Carla Shimeld التي عملت بكل تصميم ورباطة جأش حتى حوّلت الفوضى إلى نظام واضح المعالم. وفوق ذلك كله فقد زادت مُتعَتي وفهمي الإنساني للموضوع بوجود زوجتي «سالي» إلى جانبي أثناء كثير من أسفاري ومقابلاتي.

إنني مدين لأُناس كثيرين لإيضاحاتهم وتصويباتهم، لكني آخذ على عاتقي المسؤولية كاملةً عن أي خطأ باق؛ وسأكون ممتنّاً لكل تصويب واقتراح يَرِدُ إلَيَّ من القُرّاء، وسوف أستدرك ذلك في طبعات مقبلة.

وأَودُّ أن أَشكرَ جميع الأَشخاص التالية أَسماؤهم في جنوب إفريقية، والذين ساهموا بالمقابلات والمداولات معي أو أولئك الذين ساهموا مع مساعدي «جيمس ساندرز» JamesSanders، وقد أَشرتُ إليهم بنجمة (*).

روك أجولو Rok Ajuluu، ونيڤيل ألكسندر Neville Alexander، وتشارلز أنسون Charles Anson، وقادِر أَسمال Kader Asmal، وإسماعيل أيوب Ismail Ayob، وبريل بيكر Beryl Baker، وفيكيله بام Fikile Bam، ونييل بارنارد Niël Barnard، وجون باترسباي John Battersby، وديڤيد بريسفورد David Beresford، وغاي بيرغر Guy Berger، وهايمان برنارد Hyman Bernadt، وجورج بيزوس George Bizos، وتوني بلوم Tony Bloom، وأَليكس بورين Alex Boraine، وبيتر بوثا Pieter Botha، وپيك بوثا Pik Botha، وپي. دبليو بوثا P.W. Botha، والأخضر الإبراهيمي Lakhtar Brahimi، وكريستو براند Christo Brand وجولس برود Jules Browde، وغوردون بروس(*) Gordon Bruce، وبريان بَنْتينغ Brian Bunting، وبوذِليزي مانغوسُوذو Buthelezi Mangosuthu، وأَمينة كاتشاليا Amina Cachalia، وآندرو كان Andrew Cahn ولولي كاللينيكوس Luli Callinicos، وآرثر شاسكالسُن Arthur Chaskalson، وفرانك تشيكين Frank Chikane، وكولين كولمان Colin Coleman، وكيث كولمان Keith Coleman، وجيرِمي كرونين

Jeremy Cronin وإدي دانيلز Eddie Daniels، وأپولون ديڤدسون Apollon Davidson، وإف. دبليو. دي كليرك F.W. de Klerk وإب ديميس Ebbe Demmissê، وروبن دينيستون Robin Denniston، وهِلينَة دولني Helena Dolny، وجون دوغارد John Dugard، وبارِيند دو پلِسيس Barend du Plessis، وتيم دوپلِسيس Tim du Plessis، ودِك إندهوفن Dick Endhoven، وإيڤان فالون Ivan Fallon، وباري فاينبرغ Barry Feinberg، وإلسه فيشر Else Fischer، وميڤ فورت Maeve Fort، وأمينة فُرِنْسِة Amina Frense، ومارك جِڤِسِر Mark Gevisser، وآنغس جيبسون Angus Gibson، وفرين غينوالا Frene Ginwala، وپيپا غرين Pippa Green، وجيمس غريغوري James Gregory، ولويزا غب Louisa Gubb، وأدريان هادلاند Adrian Hadland، وأنطون هاربر Anton Harber، وتوني هيرد Tony Heard، وريكا هودجسون Rica Hodgson، وبانتو هولوميسا Bantu Holomisa، وإيڤِلين هولتزهاوزن Evelyn Holtzhausen، وجون هوراك John Horak، وڤيرنا هَنْت Verna Hunt، وكارلاين هانتر ـ غولت Charlayne Hunter-Gault، وزبيدة جعفر Zubeida Jaffer، وجويل جوفه Joel Joffe، وآر. دبليو. جونسون R.W. Johnson، وشَوْن جونسون Shaun Johnson، وپاللو جوردان Pallo Jordan، وروني واليانور كاسرِلز Ronnie and Eleanor Kasrils، ومارك كاتْزِنِلِنْبوغِن Mark Katzenellenbogen، وليزا كي ومارتن كينغستون Martin Kingston، وهورست كلاينْشمِت Horst Kleinschmidt، وماڤيس كنايْب Mavis Knipe، وولفي كودِش Wolfie Kodesh، وآلف كومالو Alf Kumalo، وتِرّور ليكوتا Terror Lekota، وهْيُو لِوِين Hugh Lewin، وتوم لودج Tom Lodge، وريموند لُوُ Raymond Louw، وإينوس مابوزا Enos Mabuza، وغراكا مَشِلْ Graca Machel، ووِيني ماديكيزيلا ـ مانديللا Winnie Madikizela-Mandela، وپيتر ماغوبن Peter Magubane، وسترايكر ماغْوايَر Stryker Maguire، وآرثر

مايْمِن Arthur Maimane، وإيفْلين مانديلا Evelyn Mandela، وماكي مانديلا Maki Mandela، وپاركس مانكالانا Parks Mankahlana، وبربارة ماسيكيلا Barbara Masekela، وناتانيال ماسيمولا Nathaniel Masemola، وكايزر ماتانزيما Kaiser Matanzima، ودون ماتّيرا Don Mattera، وجو ماثيوز Joe Mathews، وغوفان مبِكي Govan Mbeki، وثابو مبِكي Thabo Mbeki، وإقبال مير Iqbal Meer، وأيرِن مِنِلّ Irene Menell، ورولوف ميّير Roelof Meyer، وريموند ملابا Raymond Mhlaba، وعبد المنطي Abdul Minty، وجو موغوتسي Joe Mogotsi، وإسماعيل محمد Ismail Mohammed، وپوپو موليفه Popo Molefe، وإريك مولوبي Eric Molobi، وروني موموپا Ronnie Momoepa، روث موپاتي Ruth Mompati، ومرفي ومارتا موروبيه Murphy and Martha Morobe، وشون مورّو Shaun Morrow، ومندي مِسيمانغ Mendi Msimang، وماري مسادانا Mary Mxadana، وبيِّرز نوده Beyers Naude، وجويل نيتشيتنغه Jool Netshitenghe، وليونيل نغاكانة Lionel Ngakane، وكارل نيهاوس Carl Niehaus، ووايزمان نخولو Wiseman Nkhuhlu، وكايزر نياتسومبا Kaizer Nyatsumba، وأندريه أودندال Andre Odendaal، وكلويه أوكيفه Chloe O'Keefe، وماري أوليڤيه Marie Olivier، ودوللە عمر Dullah Omar، وهاري أوپنهايمر Harry Oppenheimer، وطوني أورَيلي Tony O'Reilly، وعزيز پاهاد Aziz Pahad، وإيسوپ پاهاد Essop Pahad، وصوفي پدر Sophie Pedder، وبنيامين پوغْرَنْد Benjamin Pogrund، وسيريل رامافوسا Cyril Ramaphosa، وناريسا رَمضاني Narissa Ramdani، ومامفيلا رامفيليه Mamphela Ramphele، ودوللي راذبيه Dolly Rathebe، وبرايان روسترون Bryan Rostron، وأنتوني رويل Anthony Rowell، وجون رُد John Rudd، وألبي ساخز Albie Sachs، وبيتر ساراف Peter Saraf، وراكس سيخوا Raks Seakhoa، وجيرمي سيكينغز Jeremy Seekings، ورونالد

سيغال Ronald Segal، ومايكل سيفرت Michael Seifert، ووالي سيروت Wally Serote وتوكيو سِكْسوِل Tokyo Sexwale، ولازار سيدِلْسْكي Lazar Sidelsky، ومايك سيلوما Mike Siluma، وألبر تينا سيسولو Alber Tina Sisulu، وإلينور سيسولو Elinor Sisulu، وزويلاخة سيزولو Zwelakhe Sisulu، وجيليان سلوڤو Gillian Slovo، ومُنغو سوغوت Mungo Soggott، وروجر ساوثال Roger Southall، وأليستر سباركس Allister Sparks، وتيم ستابِلْتون Tim Stapleton، وهندريك ستَين Hendrik Steyn، وجون ساذرلاند John Sutherland، وهِلين سُزْمان Helen Suzman، وتوني ترو Tony Trew، وبِن تورُك Ben Turok، ودِزْموند توتو Desmond Tutu، وفيليب ڤان نيكِرْك Philip van Niekerk، وزوليزا ڤابي Xolisa Vapi، وبِن ڤيرستير Ben Verster، وإستير واو Esther Waugh، وإنيد ويبستِر Enid Webster، وليون ويسيلز Leon Wessels، والجنرال يوهان ويليمز General Johan Willemse، وموغْسين وليامز Moegsien Williams، وجاكوب زوما Jacob Zuma.

والآتية أسماءهم في مدينة «لندن» وأماكن أُخرى:

هِربِرت آدم Heribert Adam، وديڤيد آستور David Astor، وماري بنسون Mary Benson، ورستي وهيلدا بيرنستاين Rusty and Hida Bernstein، وبيتي بوثرويد Betty Boothroyd، ولورد كامويس Lord Camoys، وشيريل كارولَسْ Cheryl Carolus، واللِيدي لِيندا تشوكر Lady (Lynda) Chalker، وجون كولڤن John Colvin، وإيتيل دي كيسر Ethel de Keyser، وديڤيد دينكينز David Dinkins وجون دوبلداي John Doubleday، وريتشارد دودِن Richard Dowden، وماركوس إدواردز Marcus Edwards، وإليانور إمِري(*) Eleanor Emery، وسير باتريك فيروِذِر Sir Patrick Fairweather، ومايكل غافْشون Michael Gavshon، ودينِس غولدبرغ Dennis Goldberg، ودينِس هيلي Dennis Healey، وسير إدوارد هيث Sir Edward Heath، ودينيس هربشتاين

Denis Herbstein، وإريك هوبسبوم Eric Hobsbawm، وجورج هاوسر(*) George Houser، وتريڤور هَدْلِستون Trevor Huddleston، ولورد بوب هيوز Lord (Bob) Hughes، وپول وأديلايد جوزيف Paul and Adelaide Joseph، وغلينيس كينوك Glenys Kinnock، وبرايان لاپّينغ Brian Lapping، وكولين ليغوم Colin Legum، ومارتن ليتون Martin Leighton(*)، وفريدا ليڤسون Freda Levson، وأنتوني لويس Anthony Lewis، وجون لونغريغ(*) John Longrigg، وتريڤور ماكدونالد Trevor Macdonald، وسير كيت ماكماهون Sir Kit McMahon، وشولا ماركس Shula Marks، وجاك موريّون Jacques Moreillon، وليونيل موريسون Lionel Morrison، والليدي إمَّا نيكولسون Lady (Emma) Nicholson، وروبرت أوكشُت Robert Oakeshott، وتوماس پاكينهام Thomas Pakenham، وناد پيليه Nad Pillay، وڤِللا پيليه Vella Pillay، وإلِن پوتر Elaine Potter، وسير تشارلز پويل Sir Charles Powell، ولورد رِنْويك Lord Renwick، وجون سنو Jon Snow، والليدي (ماري) سومز Lady (Mary) Soames، وجورج سوروس George Soros، وريتشارد ستِنْغِل Richrd Stengel، وجون تِيْلور John Taylor، ونورين تِيْلور Noreen Taylor، ومايكل تيري Michael Terry، وستانلي أويس Stanley Uys، وراندولف ڤينه Randolph Vigne، وپِرْ واستبيرغ Per Wastberg، وبرَيان وَيدْليك(*) Brian Widlake، ودونالد وُودز Donald Woods، وآن يِتْس Ann Yates، وآندرو يونغ Andrew Young، ومايكل يونغ Michael Young.

توطئة

البطل الأخير

تُحضَّر قاعة «وستمنستر» في لندن، القلب القديم لمباني البرلمان، لتكريم رئيس دولة زائر، في مراسم تشريفات تقام فقط مرة أو مرتين في مدىٰ العُمر. آخر ضيف من هذا المستوى كان الجنرال ديغول في سنة 1960؛ والضيف هذه المرة، في تموز (يوليو) 1996، هو الرئيس نلسون مانديلا. والمقارنة متكافئة، فكل من الرجلين كان فذّاً عزَّ مثيلُه، كان ينظر إليهما كمنقذين لبلديهما. لكن تحوّل مانديلا كان أكثر غرابة من تحوّل ديغول. فقد اعتبره كثير من السياسيين المتابعين له، في الماضي، عدواً لهم لا يجوز السماح له أن يقود بلده. ورماه كثير من نواب البرلمان المحافظين بالإرهاب. أما رئيسة الوزراء السابقة الليدي ثاتشر، التي تجلس قريباً من مقدمة الحفل، فقد قالت قبل تسع سنوات، إن كل من يعتقد أن حزب المؤتمر الإفريقي الوطني سيشكل حكومة يوماً ما في جنوب إفريقية فهو يعيش في أرض الأحلام. والآن تحققت أرض الأحلام في قاعة وستمنستر. لكن الطقوس في هذه القاعة التي تعود بتاريخها إلى القرون الوسطى أضفت الشرعية على كثير من تحولات الوَلاء الحرجة والمُربكة خلال القرون، منذ ريتشارد الثاني حتى هنري الرابع في سنة 1400، ومن تشارلز الأول حتى أُوليڤر كرومويل في سنة 1649، كلٌّ على حدّ سواء. لكن تلك الاتهامات وأضدادها تتلاشى الآن في صخب أصوات الأبواق.

إنه أشبه بمشهد أُوبرالي مهيب يحف به حرس من فرقة أَكَلَةِ لحم البقر[1]، مصطفاً على جانبي السلالم المؤدية إلى القاعة، وحرس آخرون اعتمروا خوذاتهم في مُؤخرة القاعة. ويحضر رئيس مجلس اللوردات، اللورد ماكاي صاحب كلاشفيرن Lord Mackay of Clashfern بزيه الرسمي. وأخيراً، يظهر نلسون مانديلا بقامته الطويلة النحيلة ويمشي مرتعشاً إلى أسفل السلَّم الكبير، مُمسكاً بيد رئيسة مجلس العموم بيتي بوثرويد Betty Boothroyd. التي قالت فيما بعد؛ إنها دقائق خمس، كانت أعظم ما انطبع في ذاكرتها مدىٰ حياتها. وهذا نبيل من حزب العمال كان يجلس أمامي، وقد أذن لدمعه أن يَنْسَكِب على خديه. وعزفت جوقة الحرس (من سلاح المشاة) موسيقى «نكوسي سيكليل إأفريكا» 'Nkosi Sikelel iAfrika، وهي ترتيلة أَنشدها الثوّار السود في جنوب إفريقية لعشرات السنين. ويلقي رئيس مجلس اللوردات كلمة متواضعة، مُستَذكِراً كيف شَهِدَتْ هذه القاعة تطور الديمقراطية البطيء منذ الوثيقة العظمى Magna Carta سنة 1215، وكيف شارك أَبناء ورعايا بريطانيون وجنوب إفريقيون الحق الديمقراقطي بالإدلاء بأصواتهم في الانتخابات على حد سواء، صوت واحد لكل منهم. ثم يُقدِّم بحرارة الثائرَ السابق، الذي يبدو الآن كأنه سيدٌ إنكليزي كريم من الطراز القديم.

ويتحدث مانديلا بِتُؤدَة، وبنبرته المؤدبة المعتادة. ورغم أن معظم الحضور لا يستطيعون سماعه بسبب تَرَدد الصَّدى، فقد كان خطاباً قاسياً لا يُعجِب الليدي تاتشر Lady Thatcher، كما تصرِّح فيما بعد. فهو ينظر إلى مئتي سنة خَلَت؛ إلى الوقت الذي استعمرت فيه بريطانيا أولاً جنوبَ إفريقية واستولت على أرض أجداده. وذكَّرَ المستمعين كيف تقدم حزب مؤتمر جنوب إفريقية منذ ثمانين سنة بعريضة إلى مجلس العموم البريطاني، يَحتَجُّ فيها على

(1) فرقة أَكَلَة لحم البقر Beefeaters، فرقة من فِرَق الحرس الملكي البريطاني (المترجم).

تركه الأمور لرحمة الحُكّام البيض من اتحاد جنوب إفريقية الجديد. أما الآن فإنه يأتي كصديق لبريطانيا، إلى بلد حلفائه القدامى من أمثال وليام ولبرفورس William Wilberforce وفينر بروكواي Fenner Brockway ورئيس الأساقفة تريفور هَدلستون Trevor Huddleston. ويتابع مشيراً إلى الرعب الذي خَلَّفَه التمييز العِرقي، سواء في جنوب إفريقية أو في ألمانيا النازية ـ «وكيف فسحنا المجال لهذه الأمور أن تَحدث؟» والمذابح المروِّعة والبؤس المنتشر في أنحاء من إفريقية؛ ثم يختم قوله بالتطلع إلى المستقبل لإغلاق الدائرة، إلى بريطانيا وجنوب إفريقية يداً بيَد لبناء إفريقية إنسانية.

هذا هو مانديلا رجل التاريخ الأخير في سلسلة القادة الثوار في آسية وإفريقية الذين حاربوا لنيل حريتهم، وسُجِنوا وأُهينوا، ثم اعتُرِفَ بهم رؤساء دول في آخر الأمر. لقد كان الأفريكان[2] المتعصبونمن ألدِّ الأعداء الذين انعدمت الرحمة في قلوبهم، بينما يقف هو اليوم موقفاً شهماً، مختلفاً عن أسلافه، معطياً الأمل لشعبه وللآخرين ليرأبوا صَدْعَ خلافاتهم العِرقية. لقد أصبح بطلاً عالمياً في نهاية القرن العشرين. في زمن أولئك الذين يقومون بإحصاء أصوات الناخبين، والحكماء الذين يقدمون على تشغيل آليات الإداراة، وجماعات التركيز التي وجهت جهودها لخدمة قضية ما، إنه يستحضر عصر جيل سابق من المحررين الثوَّار وقادة الحروب. أما في منظار المحافظين التقليديين فإنه يُثير ذِكرى رجال عِظام جسدوا دولهم فتمثلت فيهم. وأما في منظار اليسار المُحْبَط بقضايا خاسرة، فهو يعطي أملاً جديداً في أن الحق لا يضيع وأنه مطلب يمكن تحقيقه. إن السنين الثلاثين التي قضاها في السجن قد حَجَبَتْه عن طغيان النزعة الماديَّة والاستهلاكية اللتين اجتاحتا العالم الغربي.

وفي الوقت الذي يمضي فيه مانديلا في مراسم الأُبَّهَة المعدّة لزيارة رئيس

---

(2) السكان البيض المنحدرون من المستعمرين الهولنديين القدامى بصورة خاصة، في جنوب إفريقية. (المراجع).

دولة، يبعَثُ الحياة من جديد في الملكية البريطانيّة التي تحاصرها مشكلاتها الخاصّة. ويذهب بعض الحُضور مباشرة من قاعة وستمنستر إلى فندق دورشستر Dorchester، حيث يقيم مانديلا مأدبة للملكة. ويصل مانديلا مع الملكة ويبدو للجميع أكثر أبهة وأكثر ارتياحاً منها وهو يتبختر بين المدعوين. وفي نهاية الغداء يلقي كلمة أخرى قصيرة، مذكِّراً الملكة أنه مُجرَّد صبي ريفي، شاكراً لها فتحها جميع أبواب المجتمع البريطاني له ولإذنها له بالسَّير في حديقتها في الصباح الباكر. كان ارتياح الملكة برفقته جلياً أثناء تجاذبهما أطراف الحديث. وفسَّرَ أحد أفراد البلاط ذلك قائلاً: «إنها تُشاركه الكثير، فكلاهما أمضى وقتاً طويلاً في السجن».

وفي المساء، قُدِّمَ «مانديلا» آخر للجيل الشاب: نجم الوسط الفني الأول وصديق نجوم الفن الشعبي. إنه ضيف الأمير تشارلز، الذي جاء مع معظم أفراد العائلة المالكة، جاؤوا لحضور حفلة موسيقية يشهدها خمسة آلاف متفرج في ألبرت هول Albert Hall. لقد أَثنى مانديلا دائماً على الموسيقيين لدورهم في مواجهة العرقية، ونضالهم من أجل إطلاقه من سجنه؛ وها هم الآن قد تجمعوا ليعبِّروا له عن إعجابهم واحترامهم، مبتدئين بفرقة «فيل كولينز» Phil Collins الكبيرة، ومنتهين بخاتمة الانتصار التي قادها عازف البوق الجنوب إفريقي «هيو ماسيكيلا» Hugh Masekela. يصفق الحضور ويتمايلون طرباً. وفي المقصورة الملكية، انتصب مانديلا على قدميه، مُغَيِّراً المسار، متمايلاً ومحركاً ذراعيه برشاقة ومَرَح. أما الأمير تشارلز فقد أخذ يحرّك قدميه، وقد خانته البراعة، بينما أخذت الملكة تُصفِّق بحذَر، حتى الأمير فيليب أخذ يتمايل قليلاً. وهكذا ظهر مانديلا إلى جانبهم، وكأنه ملك الأحلام الذي يحفظ الإيقاع، ويتمايل ويرقص مع رعيَّته.

وفي الصباح التالي كان هناك «مانديلا» آخر: بطل المظلومين والمستضعفين، رئيس الشعب الذي يمكنه أن يجمع شمل كل الأعراق. يجول

مانديلا مع الأمير تشارلز في حي بريكستون Brixton المتعدد الأعراق والذي يقع جنوب لندن، حيث استقبله وحيَّاه حشد كبير من اللندنيين السود والبيض. يتجه من هناك إلى ساحة «الطرف الأغر» Trafalgar Square، التي يحتلّ أحد جوانبها مبنى مجلس جنوب إفريقية، القلعة القديمة للتمييز العنصري التي صارت الآن رمزاً للتحرُّر. لقد أُغلِقَت الساحة في وجه حركة المرور، واكتظت بالناس الذين يرتدون قمصاناً طُبِعَت عليها صورة مانديلا والأعلام الخفّاقة. وبينما يسير مانديلا ببطء خلال الحشد، وقف الأطفال ينظرون إليه بإعجاب، ويمدون أيديهم ليلامسوه. وعندما يظهر على شُرفَة مبنى مجلس جنوب إفريقية، يبدو كأنه البابا يبارك الجماهير أكثر من كونه سياسياً يُحَيِّيهم: «أود أن أضع كل واحد منكم في جيبي»، قالها مانديلا متحدثاً عن الحب دونما ارتباك، ويضيف: «أنا لست مُتَشَنِّجاً ولا خائِفاً من الحب، فالحبُّ عظيم الإلهام».

لماذا يجذب شَيخ سياسي إفريقي هذا التعاطف والحب الفريد ـ ليس في بريطانيا فحسب، بل في أوروبا وأمريكا وآسيا ـ في زمن يتزايد فيه عدم الثِّقة بالسياسيين في كل مكان أكثر من أي وقت مضى؟ لا أستطيع إلا أن أتساءل وأعجب؛ ماذا حَلَّ بالمحامي الشاب الصّلب، والفخور الثائر، الذي عرفته في جوهانسبرغ في الخمسينيات، والذي كان ينظر بريبة إلىٰ عالم البيض العدائي، والذي كان يلقي الخطب العنيفة الصاخبة، يشجُب فيها الإمبرياليين البريطانيين؟ ماذا غيَّرَ ابتسامة ذلك الشاب المشرقة إلى كشرة مُرَحِّبة تنم عن الدفء الأصيل.

ثم ينتقل من «الطرف الأغر» إلى فندق «دورشستر»، حيثُ أُتيحت لي ثَمَّةَ فرصة لحديث مقتضب ومنفرد معه. إنه في مِزاج عالٍ ونَشِط، فهو سعيد غاية السعادة باستقبال الملكة والجماهير له في بركستون. ويعود بذاكرته إلى زيارته الأولى للندن سنة 1962 عندما كان ثائراً غَرّاً منغمساً في نضاله قبل شهرين من سجنه مدَّة سبع وعشرين سنة. سألته لماذا تغيَّرت هذا التغيّر الكبير؟ فأجاب ضاحكاً: «ربما لأني كنت عندئذٍ في موقف دفاعي». الآن، يبدو مانديلا في

راحة تامة متساهلاً مع الجميع ومع ذاته؛ لكنه يوضح كعادته، أنه لا يرغب في الحديث عن شعوره.

ليس من السهل لكاتب سِيَر أن يصوِّرَ نلسون مانديلا من وراء أيقونة: إن ذلك يشبه محاولة تصور شكل شخص ما من الجانب المعاكس للأضواء، فالأُسطورة قوية إلى درجة قد تُعشي الحقيقة وتحيطها بضباب، وتحولُ كلَّ شيء إلى أعمال عروض مسرحية تجتذب مجلة هِللو Hello! تماماً كما تجتذب جريدة نيويورك تايمز New York Times. إنها أُسطورة تبهر الصغار والكبار على حَدّ سواء، فقد صارت قصته كحكاية الأسطورة والخرافة المفضلة في العالم: لقد أُطلق سراح السجين من الزنزانة المعتمة، لقد تبيَّن أن الفقير هو الأمير، إنه الغول الذي تبيَّن أنه هو الساحر. حتى السياسيون الذين يحسنون الظن بالدوافع البشرية مسحوا عَبَراتهم في حضور مانديلا، فربما رأوا فيه قديساً دنيوياً جعل مهنتهم تبدو للناس طاهرة، وارتقىٰ فوق إخفاقاتهم. لقد حذرني بعضهم قائلاً: «لا أُريد أن أراه يُذكَرُ بسوء».

ليس من الواقع تصوير مانديلا قديساً، وهو لم يدَّعِ ذلك قَطُّ: «أنا لستُ ملاكاً»؛ إذ لا يستطيع قديس أن ينجو بنفسه وقد عاش في غابة السياسة خمسين سنة، ثم يحقق هذا التحول الدنيوي. فلمانديلا نصيبه من الضعف الإنساني، وفيه العِناد والكبرياء والبساطة والسذاجة والاندفاع والتَّصوّر، ووراء سلطته وقيادته الأخلاقيتين كان يخفي دائماً سياسياً متكاملاً. لقد قال أحد زملائه المقربين: «لم أعرف مطلقاً ما إذا كنتُ أتعامل مع قديس أو مع شخصية ماكيڤيللية». وقد ارتكزت منجزاته العظيمة على براعته واتقانه السياسة بمعانيها العريضة الواسعة، وعلى فهمه كيف يتحرك ويقنع الناس بتغيير مواقفهم ونهجهم. فهو عازم دائماً على أن يتولّى القيادة من خطها الأمامي، شأن غاندي أو تشرشل، من خلال ضربه المثل بنفسه ومن خلال حضوره، فقد تعلّم في وقت مبكّر كيف يبني صورته وكيف يفهمها.

يبقى مانديلا إفريقياً صرفاً بكل ما يتمتع به من موقع دولي: فقد بَزَغَ في إفريقية سيداً للسياسة أكثر من أي مكان آخر. وبعد أسبوع من زيارته لبريطانيا أقام مانديلا حفل عيد ميلاد على أرض قصر الرئاسة في پريتوريا لقدماء المناضلين. ملء عربات من الضيوف بمن فيهم الجدَّات والأجداد تجمعوا في السُرادِق. وظهر مانديلا في أحد أطراف السرادق مشرفاً عليهم متألقاً بقميص فضفاض زاهي الألوان، وقد خَفَرَهُ حرسه الخاص جيئة وذهاباً وراء ظهره المكشوف. لقد أشاع مانديلا البهجة في المكان كما يفعل أي مرشَّح للرئاسة، فقد كان يستمتع ويصخب ويمرح مع الحضور ويكتشف الوجوه البعيدة، يتذكر الأَسماء، ويَنشُر المودَّة والارتياح ويَمدُّ يديه الكبيرتين، يدي المُلاكِم، ليصافح الضيوف. ويخصُّ كلَّ ضيف بنظرةٍ حميمة وابتسامة خاصة ويحسن الإصغاء ويبدي اهتماماً بما يستمع إليه: ـ «فهمتُ، فهمتُ» ـ ثم يتركهم فتتَّقِد نفوسهم بالفخر والسعادة. ثم يتوسط السُرادِق ليرحب بالخاصَّة من ضيوفه، فيعانقهم، ومنهم وزراؤه وبعض الأصدقاء من البيض مثل هيلين سُوزمان Helen Suzman ونادين غورديمر Nadine Gordimer. ويجلس بين صديقين في الخمسينات من العمر واقفين هما والتر سيسولو Walter Sisulu وأحمد كاثرادا Ahmed Kathrada. لكنه يبقى السياسيّ الألمعي، فهو لا يريك إلا فارقاً بسيطاً بين شخصيته السياسية وشخصيته الخاصة، ويواصل الجميع بطراز واحد من السلوك الحميم.

ولمانديلا برنامجه الخاص ببناء الأمة، فهو يشرحه بكلمة يرتجلها، من غير مظاهر مُتَكَلّفة، ودون حضور صحفيين ينقلون الوقائع. لقد دعىٰ ضيوفه، على حد قوله، لأن كلاً منهم قد ساهم بقسط في التحوّلات السلمية في جنوب إفريقية؛ وليذَكِّرَهم من أين أتوا. ويقول مانديلا: «إن تاريخ أبطال التحرير يُظهِر لنا أَنهم عندما يصلون إلى السُّلطة يتعاملون مع الجماعات ذات السلطة والنفوذ؛ ويَتَناسَوْنَ أن أفقر الفقراء هم من ولاّهم السلطة. وغالباً ما يفقدون حِسَّهُم

البدهي، وينقلبون على أبناء جلدتهم». هنا يلعب مانديلا لعبته السياسية الأخيرة وبأعلى رهان: ليوحِّدَ شعب جنوب إفريقية اليائس. ويقول في وقت لاحق «إنني مستعد لأن أعمل أي شيء يشدُّ أبناء هذا البلد إلى بعضهم بعضاً ويُقارِبُ بينهم».

وتعزف الفِرقة الموسيقى في بدء الحفل، ويستعرض العجوز الجالس إلىٰ الطاولة الرئيسة المَشْهَد. وكان بين الموسيقيين والمغنيين نجوم من الخمسينات والستينات مثل دوللي راثبه Dolly Rathebe وثاندي كلاسِنس Thandi Klaasens الذين يعيدون لمانديلا ذكريات صباه في جوهانسبرغ. ويتنوّع انتماء الضيوف إلى كُلِّ مرحلة من مراحل عمله السياسي الطويل: فمنهم رجال القبائل الذين ما زالوا يرون فيه الحاكم التقليدي؛ وشيوعيون بيض وهنود شاركوه نضاله في الخمسينيات والستينيات، وسجناء سابقون في جزيرة «روبن» Robben Island كسّروا معه الحجر الكلسي في مقلع الحجارة؛ ورجال أعمال بيض ما برحوا يدينونه كإرهابي حتى التسعينيات ثم رحبوا به في مآدبهم. لقد وسّع مانديلا آفاقه السياسية مع كل فريق. وتنقَّل بينهم جميعاً دون تَكَلُّف، مُتَحَوِّلاً بسهولة من اللهجة العامية إلى لغة المال الاصطلاحية. غير أنه، وبرباطة جأش، يُظهر نفسه فجأة «مانديلا» آخر، بشفاهٍ مقلوبة للأسفل ونظرة محدِّقة كئيبة تنمّ عن عزلته اللامتناهية. كأنما المشهد حوله مُجرَّد عرض مسرحي. ووراء كل نزعته الاجتماعية نجد مانديلا صامداً في كتمانه لا يُخْتَرَق، كأنه يحمي خفايا أعماقه البعيدة التي تبدو أعمق من غيره من السياسيين.

وبعد مضي أيام على الحفل، وبينما هو في مكتبه الرئاسي المُعْتِم الكئيب في داخل مباني الاتحاد في بريتوريا، يَسْتَرجِع مانديلا بهدوء الأسبوعين المُرهِقَيْن، فيتذكر بسعادة دفء الاستقبال والحماس اللذين لقيهما في زيارته لبريطانيا، لكنك تجده أكثرَ قُرباً عندما يَشْرَع بالحديث عن السنين الطويلة التي قضاها في سجنه. ويتذكر ثانية كيف أيقن وهو في السجن أن السجانين قد

يكونوا طيبين أو سيئين، شأنهم شأن الناس جميعاً. قال مُحدِّثاً نَفْسَه: «إنها مأساة أن تضيع زَهْرَة أيام حياتك، لكنَّك تَعَلَّمْتَ الكَثير، وكان لَدَيْكَ الوقت لِتُفَكِّر، ولِتَنْأىٰ بِنَفْسِكَ عن نَفْسِك، وتنظر إليها من بُعْد، وترىٰ تناقُضات ذاتِك».

إنّ مانديلا ـ كما يبدو ـ ما زال يحتفظ بزنزانته في داخل نفسه، لتحميه من العالم الخارجي، وتضبط عواطفه، وتوفر له عزلة الفيلسوف. إنها فترة السجن التي جعلته يُطوِّر فن السياسة الصَّقيلة الحاذِقَة: كيف ينتمي لِشَتَّىٰ أصناف الناس، كيف يُقنِع ويُداهِن، كيف يحول سجانيه إلى تابعين، وكيف يصبح في نهاية الأمر سيداً في سجنه. إنه ما بَرِحَ يردد قصيدة و. ي هينلي W.E. Henly التي تعود للعصر الفيكتوري «أنا سيّدُ قدري أنا قبطان روحي».

أحاول في هذا الكتاب أن أَنْفُذَ في داخل أيقونة مانديلا لأعرض الحقائق المؤلمة لرحلته الطويلة المحفوفة بالمغامرات، مُجَرَّدَةً من وهج الأسطورة؛ ولأكشف كيف ينتمي هذا الرجل ذو الخصوصية القُصوىٰ إلى هذه الأسطورة الأكثر شيوعاً. إني أحاول أن أجوسَ خلالَ سنيّ سجنه عندما كان مُحْتَجِباً عن وهج السياسة العامة مدة ثلاثين سنة تقريباً، فاكتسب منها استقلال الرأي وصلابة العود أمام المحن المقبلة. كما أحاول أن أقتفي أثر الرجل الثابت وراء جميع المانديلات التي تقمّصها في حياته العملية المذهلة المترامية الأطراف. إنه ابن شيخ قبيلة إفريقي حافظ على كثير من قِيَمِه الريفيّة بينما هو يمتطي صَهْوَة مسرح الأحداث العالمية.